محمد رشيد رضا، وإضافاته في التفسير

Muhammad Rashid Ridha, and his additions to the interpretation

بومدين عبد العزيز[1*]، أ.د محمود مغراوي[2]

[1] جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، (الجزائر) a.boumediene@univ-alger.dz

جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر) m.maghraoui@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: تاريخ القبول: تاريخ النشر:

ملخص:

شهد التفسيرُ على عهد السيد جمال الدين وتلميذه محمد عبده وتلميذ الأخير السيد رشيد رضا تحولا نوعيا، إذ تخلّص كثيرا من حجم المباحث الهامشية في اللغة والمنطق والكلام والفروع الفقهية... وأصبح أكثر التصاقا بالمجتمع الزمني وقضاياه. إنَّ تفسير المنار للسيد رشيد رضا مثال واضح للإضافات النوعية في التفسير، ففيه يتمّ التفسير بصحيح المأثور لا الضعيف والإسرائيليات، وفقه القرآن رأسا لا الفقه المذهبي، وببلاغة القرآن الحيّة لا مباحث بلاغة المتأخرين الاصطلاحية، ووقع فيه التنبيه بكثافة إلى أهمية السنن الاجتماعية في حياة الجماعات فضلا عن الأفراد، لما في ذلك من أسباب القوة في السياسة والاقتصاد والتربية.

الكلمات المفتاحية: تفسير، المنار، رشيد رضا، تجديد، سنن.

Abstract:

The interpretation witnessed during the era of Mr. Jamal Al-Din and his student Muhammad Abdo and the latter's student, Mr. Rashid Ridha, a qualitative transformation, as he got rid of a lot of marginal investigations in language, logic, speech and jurisprudence branches... and became more attached to the temporal society and its issues. The interpretation of Al-Manar by Rashid Ridha is a clear example of qualitative additions in the interpretation, in which the interpretation is done with the correct maxim, not the weak and the Israelites, the jurisprudence of the Qur'an at the head, not the jurisprudence of the branches of the inherited schools.

Keywords: interpretation, Al-Manar, Rashid Ridha, renewal, Sunan.

---

[*] المؤلف المرسل

مقدمة:

يمثِّلُ تفسيرُ القرآن الكريم خدمة دينية يقوم بها من تأهل لذلك من العلماء، فاجتمعت لديه شروط المفسر، وهو في النهاية استجابةٌ لحاجة قارئ التفسير من الفهم والاعتبار، لا فقط اهتمامات المفسّر التخصصية. وإنّ المطالع للموروث من التفسير بإمكانه أنّ يسجل إلى أي مدى حققت التفاسيرُ هذا المقصدَ الدينيَّ المستمرّ، ويدرك بالتالي إلى أي مدى استطاعت مدرسة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، ووراث علمهما السيد رشيد رضا مقاصد التفسير المطلوب، ومن بعد ذلك كل من سلك نفس النهج الإصلاحي، وما تحقق من الإضافات العلمية مما بدا واضحا في عمل رشيد رضا خصوصا في تفسير المنار وعموما في مجلة المنار. وإنّ تلك الإضافات المتمثلة أساسا في الاقتصاد في المباحث اللفظية، والتفريعات المذهبية...لصالح ربط قضايا القرآن/التفسير بحاجات الواقع المتجدد.

الإشكالية:

لقيَ تفسيرُ المنار لرشيد رضا قبولا واسعا، فكان تفسيرُه بذلك تحولا كبيرا في شكل التفسير ومضمونه. ولا شك أنّ إضافاتٍ كثيرةً شملت منهجَ وموضوعاتِ ذلك التفسير؛ فما هي بالضبط تلك الإضافات، وهل كانت عناصر جديدة لا عهد للتفسير بها، أمْ كانت تجديدا لعناصرَ قديمةٍ موروثة؟ وما هي ميادينُ تلك الإضافات العلمية؟

المنهج المتبع:

أتبع في معالجة هذه الإضافات المنهجَ الوصفي بعرض كثير من النماذج التفسيرية، كما أعتمد بعضَ المقارنات مع نماذج أخرى من التفسير مع بيان بعض الميزات الفارقة بين الطرفين؛ فكان المنهج المتبع وصفيا مقارنا.

أهداف البحث:

أبين بشكل كاف كثيرا من الإضافات التي تميزَ بها التفسير على عهد السيد رشيد رضا في كتابه تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، سواء بالاقتصاد في مباحث اللغة، أو بمحاولة بعث روح البلاغة العربية الأصيلة، أو بيان أحكام القرآن مقرونة بأدلتها ومقاصدها، كما أبين فيه كيف استطاع أن يعالج من خلال تفسيره قضايا الساعة في حياة المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية... مع ما صاحب ذلك من دعوة المسلمين إلى اعتماد القرآن والسنّة وسنن الله

الكونية والاجتماعية قاعدةً انطلاق لتغيير جذري لواقعهم الصعب، وعلاجا لمختلف تحديات وجودهم واستمرارهم.

الدراسات السابقة:

تعددت الكتابات حول تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، سواء تعلق الأمر بالمقالات العلمية أو بالأبحاث الأكاديمية في مختلف الموضوعات التي تضمنها تفسيرُه، أو تعلق الأمر بالكتابات العادية؛ فتعرضت بذلك لمنهجه في التفسير وقضاياه. ونحن نعرض مجموعة من ذلك:

– منهجُ تفسير المنار في التفسير، هاجر محمد أحمد شبو، رسالة دكتوراه، جامعة الخرطوم، 2004م.

– مفهوم التشريع الاجتهادي ومقاصده عند الشيخ محمد رشيد رضا، عبد الحق الإدريسي، مقال علمي، م09 ع 02 (2021م).

– منهج رشيد رضا في توظيف علم الاجتماع في التفسير، د: بكر قاسم، مقال بمجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية، جامعة غرداية، م03 ع01 (جوان 2019م).

وغير هذا كثيرٌ جدا، فمن الباحثين من تخصص في الموضوع الواحد، ومنهم من تعرض لأكثر من ذلك. والذي ألم به الباحث هنا هو جمع ما تفرق في الدراسات السابقة، مع التركيز على فكرتين هما: الاقتصاد في مباحث الوسائل كاللغة والأصول وعلم الكلام لحساب مقاصد التفسير، وثانيا التركيز على اهتمام رشيد رضا بحاجات قارئ التفسير، لا اهتمامات المفسر التخصصية، وذلك عن طريق ربط قضايا القرآن/ التفسير، بالحاجات الدينية للمسلمين أفرادا، وأمة.

الإضافات الإصلاحية

تمهيد:

وقع السؤال قديما إن كان القرآن وهو الذي أنزله الله ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الزمر: 28] محتاجا إلى كلّ هذه المقادير المتزايدة من إنتاج التفسير ما بين مطوّل ووسيط ووجيز. فمن المفسرين من تعمّق في لغته، ومنهم من خاض في أحكام عقائده وتشريعه، ومنهم أيضا من فصّل في آياته الكونية... فماذا فهمَ العربُ إذن وهم خصومه أولَ حال، وفيمَ اخترطوا سيوفهم ضدّه؟ وقد بادلوه العداوة آمادا طويلة لولا أنهم فهموا منه المبنى والمعنى، وعرفوا درجات التغيير التي يريد إحداثها في حياتهم، وصعوبة ذلك التغيير عليهم...

إن ظروفا جديدة حقيقة تكون قد جعلت من التفسير حاجةً دينية ومعرفية أكيدة، لمن تلا الجيل الأول مع تسجيل أنهم قد فقدوا كثيرا من ملكة اللسان العربي بنهاية النصف الأول من القرن الثاني وهو آخر عهد الاحتجاج بشعر ونصوص الشعراء والأدباء، وكذلك ما حصل من تباعد عهد تلك الأجيال بظروف التشريع ومقاصده... فما هو بالضبط الجديد فيما أضافته الأجيال المتلاحقة من المفسرين.

إنّ جميع ذلك وغيرَه كثيرٌ يحتم بنظر السيد رشيد رضا – وهو من يهمّنا هنا- إعادةَ إنتاج بيان القرآن، لأجل سلامة تنزيل آيات ذلك الكتاب ونُظُمه في حياة المسلمين، للحدّ من تأثير الزمان والمكان فيما هو من ثوابت الدين لا يقبل التبديل، مع ضرورة التوسع في ذلك التأثير فيما هو متغيرٌ من الحاجات المجتمع الإسلامي وتحديات وجوده، وما يقتضيه ذلك من الوسائل المتجددة في حياة المسلمين.

01. التعريف بالسيد رشيد رضا وشخصيته العلمية:

1.1. التعريف بالسيد رشيد رضا:

نعرّف بمقدار ما يحتمله المقالُ العلمي بمحمد رشيد بن علي رضا، والذي يعود أصلُ أسرته إلى الحجاز، وكانوا قد سكنوا قديما النّجف من أرض العراق، وانتهى بهم المطاف أخيرا بقرية قلَمون من أعمال طرابلس من أرض الجمهورية السورية اليوم. وهو رجل شريف الأصل حسيني النسب. ولد عام (1865م) في بيت علم عريق ومكارم أخلاق أصيلة. التحق بمدرسة شيخه حسين الجَسِر الأزهري الوطنية الإسلامية، حيث " جميع التعليم فيها باللغة العربية إلا اللغتين التركية والفرنسية، وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وكان أستاذنا العلامة الشهير حسين الجسر الأزهري هو المديرَ لها بعد أن كان سعى لتأسيسها؛ لأن رأيَه أنّ الأمة الإسلامية لا تصلح وترقى إلا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية، مع التربية الإسلامية الوطنية تجاه التربية الأجنبية في مدارس الدول الأوربية والأمريكانية."[1].

كما تعلم عند الشيخ محمود نشابة المجاور بالأزهر السنين الطويلة علوم الحديث، وسمع منه مقادير من السنن وأخذ عن غير هؤلاء رحمهم الله. وبدأ يكتب في الصحف تماشيا مع حسّه النقدي، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالخطب والإرشاد والتعليم.

ولما كان قد وصلته أنباء المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني (1897م)، وتلميذه محمد عبده (1905م)، فقد وافق ذلك هوى قديما في قلبه، وقد قال عن نفسه يتحدث عن بوادر الرغبة في الهجرة بعد أن اطلع على أعداد محدودة من مجلة العروة الوثقى؛ " فقد كان همي قبل ذلك محصورا في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا، فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على مسلكهم، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقتُ استعدُّ لذلك استعدادا"[2].

عزم رشيد رضا على الرحيل من طرابلس الشام إلى مصر 1898م. وقد قال متحدثا عن نفسه وعن أسباب هجرته: "عزمت على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم، ومن مناهل العلم عذبةِ الموارد، ومن طرق النشر كثيرة المصادر، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفادة الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة، وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأنْ أعملَ معه وبإرشاده في هذا الجوّ الحرّ."[3].

حضر رشيد رضا دروس التفسير الشيخ محمد عبده بالأزهر من 1317هـ إلى 1323هـ، وكان قد استأذن أستاذه في إصدار صحيفة فأذن له مشترطا عليه عدم التحزب وعدم الرد على خصوم شيخه، وألا يخدم أفكارَ أحد من الكبراء. وفي هذا الجوّ الحرّ المفعم بتحولات الزمان والمكان اندمج في صلب الموضوع، وتصدر مع غيره أجواء القيادة والتغيير، ولم يداهن في إظهار عظمة دين الإسلام وحاجة المسلمين إليه، خصوصا مع ما هم عليه من البعد عنه، ودعا إلى الاقتباس من المدنية الحديثة المقادير التي لا تعارضه مهما كبر حجمها واختلفت ميادينها. ولم يفته أن يقودَ حركة الإصلاح في الإسلام الموروث نفسِه مع ما انتهى إليه من الإضافات الغريبة عنه والتي غطت جماله، وكادت أن تطمس حقائقه.

جلس رشيد رضا إلى شيخه محمد عبده في التفسير بالأزهر المعمور، ولازمه في الإقامة والنشاط، ودافع عن أفكاره الإصلاحية في ميادين المرأة والأسرة والتعليم والأزهر خصوصا...، وواصل الانتصار لأفكار شيخه بعد وفاة الأخير، وتوسع بعده في ميادين الإصلاح، وفي حدّة المواقف ووضوحها في ميادين كثيرة منها السياسة، وما كان يموج به العالم من حول مصر من الحروب الطاحنة وقضايا الصراعات " كان للسيد رشيد رضا دورٌ كبير في الأحداث السياسية في عصره، وقد اختلف موقفُه بعد وفاة الأستاذ إذ برزت أعماله السياسية، ووقف موقفا عظيما في مواجهة الاحتلال والاستعمار."[4].

وما إن حلّ بمصر المحروسة حتى أنشأ مجلة المنار سريعا، وأحدث لها مطبعة المنار الخاصة بها، وفتح مجال الكتابة والنشر لعلماء وأدباء زمانه، ونشر بها كتبَه وكتب غيره...ممن يوافقون أفكاره وهم كثيرون إذ كان واسعَ الفكر، معقولَ المواقف، ملتحما بقضايا زمانه الحقيقية، فكان جهاده تلبية لحاجات جيل بكامله، بل بحاجات أمة بأكملها أنهكها التخلفُ والتفرق، وشيوع روح السلبية، وأغلال التقليد، وضياع الهدف في كثير من مناحي الحياة.

2.1.مؤلفاته العلمية:

يفيد الحديث عن المؤلفات هنا تحقق ثقافة المفسر في شخصية السيد رشيد رضا؛ فقد ألّف رشيد رضا لنفسه، ودوَّن دروسَ وأفكار شيخه، ودوّن تعليقات على كتب عديدة ومطولة، بقيت آثارا خالدة من بعده، لا تزال واسعة الانتشار، كبيرة النفع، لم يتجاوز بعد الزمن الكثير منها.

أ– تفسير القرآن الحكيم: وهو المشهور بتفسير المنار إذ كان يُنشَر حلقاتٍ في مجلة المنار، وهو في الأصل توسع في المقدار الذي ألقاه شيخه الأستاذ محمد عبده من التفسير بالأزهر الشريف.

ب– مجلة المنار: ظهر العدد الأول من المنار في مارس 1898م، وحددت مقدمة هذا العدد الأغراض التي تسعى إليها هذه الجريدة، وهي نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وإقامة الحجة على أن الإسلام باعتباره نظاما دينيا لا يتنافر مع الظروف الحاضرة."[5].

ج– تاريخ الأستاذ الإمام: تضمن الترجمة الهائلة لشيخه محمد عبده، والإشادة بأفكاره الإصلاحية، " طبع في ثلاثة أجزاء كبيرة، وكان ينوي أن يتمّها برابع."[6].

د– المنار والأزهر: رد فيه بعض الافتراءات على أفكار شيخه محمد عبده الإصلاحية، والشكوى من حال الأزهر، فهو يقول: "الحقّ أقولُ أنه لا يوجد في العالم الإسلامي بيئة (أو ما يعبّر عنه في العُرف المدني بالشخصية المعنوية) أجدرُ من هذا الأزهر بالكرامة في نفسه، وبالتكريم في الأمة وحكومتها، ولكنه ظلم وهضم حقُّه بل حقوقه."[7].

هـ– الوحي المحمدي: ألفه تثبيتا لقلوب المؤمنين، أمام موجات الإنكار الشديد لظاهرة الوحي، وصراعا ضد المنكرين، وقد كانت الصحافة تحمل فصولا كثيرة للطرفين، ومساجلات عنيفة بين الفريقين.

و- تعليق على أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني: انتقد السيد رشيد رضا ومن قبله أستاذه ما انتهى إليه الدرس البلاغي في عصرهما من التنظير، وشيوع المصطلحات الفنية على حساب ذوق البلاغة العربية الأصيلة[8].

ز- تعليق على دلائل الإعجاز: كما قام الشيخ محمد عبده بتدريس دلائل الإعجاز صنو كتاب أسرار البلاغة وكلاهما لعبد القاهر الجرجاني، بالأزهر الشريف، لما لاحظ من اتصالهما بطبيعة البلاغة العربية المحتاج إليها في فهم القرآن وتراث العربية.

ح- كتاب الخلافة: كتب المرحوم علي عبد الرزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم يبرر فيه سقوط الخالفة الإسلامية 1924م، وينفي أن يكون في المصادر الشرعية ما يستدعي قيام دولة دينية، أو الحرص على ذلك على الأقل. فكان السيد رشيد رضا ممن ردّ عليه. وفي ذلك يقرر: " وأما السياسة الاجتماعية المدنية فقد وضع الإسلام أساسَها وقواعدها، وشرع للأمة الرأيَ والاجتهاد فيها، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وترتقي بارتقاء العمران وفنون العرفان..."[9].

3.1.شهادات المعاصرين بمكانته العلمية:

لعلّ خير شاهد بالمكانة العلمية والمقدرة الإصلاحية للأديب والعالم هي درجة الإقبال على مؤلفاته، وقيام الحاجة إلى تداولها، وإعادة طبعها مرات كثيرة، وهذه هي حالُ بعض مؤلفات الشيخ محمد رشيد رضا، خصوصا مجلته المنار والتفسير المشهور، وبعض كتبه ككتاب الخلافة، وكتاب الوحي المحمدي. ولا شك أنه قد خدم بمجلة المنار والتفسير خصوصا قرّاء العربية والقرآن الكريم في أوسع الشرائح... والغرض إنما هو التدليل على كفاءة صاحب تفسير المنار المعرفية، وأهليته للتفسير والتجديد.

4.1.ملامح منهج التفسير عند رشيد رضا من عباراته:

إنّ مطالع تفسير المنار بإمكانه أن يرى بوضوح سواء من خلال ما جاء في مقدمة كتابه من مبادئ التفسير وشروطه، أو من جهة تطبيق تلك المبادئ والشروط الملتزمة في التفسير على طوله. ويمكن بالتالي تسجيل ما يلي من ملامح ذلك العمل الجليل، ومنها:

أ– ملمح سهولة العَرْض: القصد من التفسير وطباعته بهذه الكميات الكبيرة عبر الدول والمواقع، وترجمته إلى لغات عديدة، وترتيبه في المكتبات العامة والخاصة، ليس له إلا مبررٌ أن ينتفع به أكبرُ عدد ممكن من شرائح قراء التفسير، ولا يتم هذا إلا إذا راعى المفسرُ مستوى معيّنا من لغة التفسير، ومن توضيح الأحكام والأخلاق والحقائق الدينية.

وواضح أنّ مستوى التخصص في العلوم لا يتناسب دائما وسهولة العرْض، ولأجل ذلك لاحظ الشيخ رشيد رضا ذلك وراعاه في تفسيره، فقد قال منتقدا جملة تفاسير السابقين: "كَانَ مِنْ سُوءِ حَظِّ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا كُتِبَ فِي التَّفْسِيرِ يَشْغَلُ قَارِئَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْعَالِيَةِ، وَالْهِدَايَةِ السَّامِيَةِ، فَمِنْهَا مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِمَبَاحِثِ الْإِعْرَابِ وَقَوَاعِدِ النَّحْوِ، وَنُكَتِ الْمَعَانِي وَمُصْطَلَحَاتِ الْبَيَانِ، وَمِنْهَا مَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ بِجَدَلِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَتَخْرِيجَاتِ الْأُصُولِيِّينَ، وَاسْتِنْبَاطَاتِ الْفُقَهَاءِ الْمُقَلِّدِينَ، وَتَأْوِيلَاتِ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَتَعَصُّبِ الْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ."[10].

وهذا الذي يذكره هو ما يشيع في تفاسير المتقدمين قلّ أن يسلم منها تفسيرٌ، وكأن المفسّر يفسّرُ لغيره من العلماء، هناك حيثُ يتمُّ استعراض مقدرة العالم والنحوي والمتكلم والفقيه على حلّ الإشكالات، وافتعال استشكالات جديدة. أما قارئ التفسير العادي وهو الشريحة الواسعة فليس له غير الإعجاب بحجم الكتاب وشهرة صاحبه، والتبرك بآثار الأقدمين.

وقد زاد انصراف قارئ التفسير العادي عن جملة التفاسير "أن بَعْضُهَا يَلْفِتُهُ عَنْهُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ، وَمَا مُزِجَتْ بِهِ مِنْ خُرَافَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَقَدْ زَادَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ صَارِفًا آخَرَ عَنِ الْقُرْآنِ هُوَ مَا يُورِدُهُ فِي تَفْسِيرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعُلُومِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِلَّةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عَهْدِهِ، كَالْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَقَلَّدَهُ بَعْضُ الْمُعَاصِرِينَ بِإِيرَادِ مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ هَذَا الْعَصْرِ وَفُنُونِهِ الْكَثِيرَةِ الْوَاسِعَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ فِيمَا يُسَمِّيهِ تَفْسِيرَ الْآيَةِ فُصُولًا طَوِيلَةً بِمُنَاسَبَةِ كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ عُلُومِ الْفَلَكِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، تَصُدُّ قَارِئَهَا عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ لِأَجْلِهِ الْقُرْآنَ."[11].

وأنت تراه في آخر كلامه إنما يقصد معاصره طنطاوي جوهري في تفسيره الكبير "الجواهر". وقد وقع انتقادُه قديما، ورغم حجمه لم يتجاوز الانتفاع به زمانَه. غير أنه والحقّ يقال قد أسدى بتفسيره للمتدينين خدمة جليلة يوم أن كان يتمّ الحمل على الأديان والوحي والمتدينين بدعوى مخالفة الإيمان للعلم، والوحي للتجربة، وقد كان ذلك فتنة للناس أعقبه شيوعُ موجات من الإلحاد كان لابد من مواجهتها بحقائق الإيمان...

ب- ملمح حاجة قارئ التفسير: كثيرا ما لا يكون قارئُ التفسير آياتٍ أو سورا أو جميعَ التفسير بحاجة إلى جميع ما يحشره المفسرُ من الموضوعات والمصطلحات، فقد تمس حاجته إلى الوصول إلى فهم مفردة قرآنية في كلمة واحدة لا بعدَ بحث علميّ، كما تكون حاجتُه إلى فهم سورة قصيرة في عبارات محدودة لا صفحاتٍ طويلة، وقد يكون محتاجا إلى فهم مقاصد القرآن لا فقط تحليل آياته آيةً آية...فلا يجد أمامه غير هذه المصنفات الضخمة والفخمة، والتي كثيرا ما نجدها تخاطب العلماء وكأنما وضعت لهم أساسا حتى أصبح أكثرُ التفسير مباراةً بين المفسرين والعلماء، يستعرضون فيها قدراتهم العلمية في شتى الفنون بمناسبة وبغيرها، وإن كان كلّ ذلك إنما هو لتصحيح التفسير، والتوسل إلى تمام الفهم عن الله فيما أرادَ من كلامه.

وإنّ مطالع تفسير الشيخ رشيد رضا يدرك جيدا أنه قد ألمّ بحاجة قارئ التفسير في جميع الآيات والسور والموضوعات، دون الحاجة إلى الموضوعات البعيدة، والمصطلحات الفنية المتخصصة، ولا الإغراب في مفردات هذه اللغة الشريفة، وما يقوم لها من شواهد الشعر والنثر. وأما التوسع في الذي وراء ذلك فكان يفرد له مباحثَ وفصولا خاصة يستطرد فيها فربما يحتاجها القارئ المتوسط بل والمتخصص.

ج- ملمح نقد موروث التفسير: وليست الموضوعات المتخصصة، والمصطلحات الفنية الدقيقة ولا وعورة النقل عن شواهد العربية هي العائق الوحيد، بل إن الرجوع المتكرر والغالب في كثير من التفاسير إلى الرواية عن بني إسرائيل، وقصص الأولين التاريخية والأدبية، وحشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة وآراء الأفراد القاصرة والمتناقضة لعدم الاستدلال عليها، كثيرا

ما يصبغ التفسير بالضعف، وكثرة الانتقاد. وفي تبرير سلوك المفسرين ذلك المسلك المشين، يقول: "وَأَكْثَرُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ قَدْ سَرَى إِلَى الرُّوَاةِ مِنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ وَالْفُرْسِ وَمُسْلِمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَجُلُّ ذَلِكَ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِكُتُبِهِمْ وَمُعْجِزَاتِهِمْ، وَفِي تَارِيخِ غَيْرِهِمْ كَأَصْحَابِ الْكَهْفِ وَمَدِينَةِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَسِحْرِ بَابِلَ وَعُوجِ ابْنِ عُنُقَ، وَفِي أُمُورِ الْغَيْبِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَقِيَامَتِهَا وَمَا يَكُونُ فِيهَا وَبَعْدَهَا، وَجُلُّ ذَلِكَ خُرَافَاتٌ وَمُفْتَرَيَاتٌ صَدَّقَهُمْ فِيهَا الرُّوَاةُ حَتَّى بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ."[12].

إنّ هذه الشروطَ التي اشترطها في تفسيره وهو من المعاصرين، هي الشروطُ التي كان يفترض أن يتبناها كلُّ مفسر، يتصدى لبيان كلام الله، ويدلّ القارئين على مراده من آياته البينات، وهو في تفسيره يكون قد جمع ما تفرّق في كلام العلماء من المتقدمين والمتأخرين حول خطورة تفسير كلام الله، وزاد عليهم أن التزمها جميعا في تفسيره، فقرّب بذلك كتاب الله من الناظرين، واحتاط لكلامه سبحانه من التعرض للتكذيب أو التحريف؛ فللّه دره من إمام.

د– ملمح التفسير المطلوب: ونضيف إلى جميع ما عرضناه من كلامه وهو بصدد الحديث عن تفسيره سواء في المقدمة أو من خلال استعراض مدى التزامه بما اشترطه في كتابه مما انتقده على غيره من المفسرين، وما أشاد به غيره وهو يطالع تفسيره، فقد ذكر مسلكه الذي سلكه على طول أجزائه الكثيرة وتبدل موضوعات القرآن، فلا نجد خيرا وأوضح من كلامه هو عن تفسيره يبين طريقته فهو يقول: "فَكَانَتِ الْحَاجَةُ شَدِيدَةً إِلَى تَفْسِيرٍ تَتَوَجَّهُ الْعِنَايَةُ الْأُولَى فِيهِ إِلَى هِدَايَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الْمُنَزَّلَةِ فِي وَصْفِهِ، وَمَا أَنْزَلَ لِأَجْلِهِ مِنَ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَهُوَ مَا تَرَى تَفْصِيلَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْمُقْتَبَسَةِ مِنْ دُرُوسِ شَيْخِنَا الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَحْسَنَ جَزَاءَهُ – ثُمَّ الْعِنَايَةِ إِلَى مُقْتَضَى حَالِ هَذَا الْعَصْرِ فِي سُهُولَةِ التَّعْبِيرِ، وَمُرَاعَاةِ أَفْهَامِ صُنُوفِ الْقَارِئِينَ، وَكَشْفِ شُبَهَاتِ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْفَلْسَفَةِ وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَرَاهُ قَرِيبًا – هُوَ مَا يَسَّرَهُ اللهُ بِفَضْلِهِ لِهَذَا الْعَاجِزِ، وَهَاكَ مُوجَزًا مِنْ نَبَأِ تَيْسِيرِهِ لَهُ..."[13].

وما ذكره هنا هذا الفاضل ضروري لحسن ونجاعة عرض حقائق القرآن، فلا تلازم بين صدق القضايا القرآنية، وسهولة فهمها، فتلك درجة يتفاوت المفسرون في اكتسابها، فربَّ مفسر يجنح إلى الغموض، والتعمق باعتماد مصطلحات العلوم، واستعمال غريب الألفاظ، وشدة الإيجاز في مقام البسط... وهو بهذا يبعد القارئ عن تفسيره والمطالع عن كتابه، ويضيّق واسعا وقد يؤدي هذا بطول الزمان بل في الزمان القريب إلى هجر تفسيره إذ لم يكن فيه مراعيا لحاجة القارئ العلمية واللغوية. بينما نرى مفسَّرَنا يراعي كلّ ذلك مراعاة الخبير بمساحة القارئين لكتابه، ويحافظ على مناسبة تفسيره لحاجة قارئ التفسير على الأقل في زمانه، بل وبعد زمانه بكثير...

2.الإضافات اللغوية والبيانية:

1.2.موقفه من مباحث اللغة والأصول في التفسير:

نزل القرآنُ الكريم بلغة العرب وعلى وفق ما عرفوا من أساليب البيان العربي، وقد خاطبهم في موضوعات العقيدة والتشريع والآداب، والقصص والجنّة والنّار بقواعد العربية، فلا عجب أن كان المتكلم والسامع على مستوى مطلوب من محاولات تبين ملامح النص القرآني، وهو الموسوم ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: 27-28]؛ فكان لزاما على المفسر أن يراعي كلّ ذلك، فهو إن لم يتوسع فيه ويتخصص فلا أقل من أن يراعي المقادير الواجب استحضارها لحظة التفسير.

يقول السيد رشيد رضا حول قواعد البيان العربي ومدى ضرورة مراعاة المفسّر لذلك: "فُنُونُ الْعَرَبِيَّةِ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَاصْطِلَاحَاتُ الْأُصُولِ وَقَوَاعِدُهُ الْخَاصَّةُ بِالْقُرْآنِ ضَرُورِيَّةٌ أَيْضًا، كَقَوَاعِدِ النَّحْوِ وَالْمَعَانِي، وَكَذَلِكَ مَعْرِفَةُ الْكَوْنِ وَسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ – كُلُّ ذَلِكَ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ. وَأَمَّا الرِّوَايَاتُ الْمَأْثُورَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَعُلَمَاءِ التَّابِعِينَ فِي التَّفْسِيرِ فَمِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ أَيْضًا لِأَنَّ مَا صَحَّ مِنَ الْمَرْفُوعِ لَا يُقَدَّمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَيَلِيهِ مَا صَحَّ عَنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ أَوْ عَمَلِ عَصْرِهِمْ، وَالصَّحِيحُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ قَلِيلٌ."[14]. وقد زاد النصُّ على مقدار ما احتجنا إليه، ولكنه وفي معرض الاشتراط في درجة المفسر، فإنّ الشروط يكمل بعضها بعضا.

2.2.إضافة ضبط المفردة اللغوية:

وبعد هذا التمهيد الذي كان القصدُ منه التعريفَ بالمؤلف وبتفسيره في الجملة، نشرع في تفصيل ذلك الإجمال بما يتناسب وحجم المقال. ولما كانت اللغة هي الحاملَ للمعاني، وهي المبينَةَ عن الحقائق بعد تأكيد صدقها، نجعل كلامنا أولا عنها؛ ذلك أنّ قارئ تفسير المنار يفتتح قراءته بالتعرض لبيان معاني المفردة القرآنية، لما لها من دور محوري في تكوين معنى الجملة العربية في الكلام.

وقاعدة الشيخ رشيد رضا أن يتعرض في البداية إلى تفسير مفرداتها اللغوية، إن كان فيها بعض الخفاء على كثير من القارئين. وميزة تحديده لمعاني المفردة القرآنية أن يقتصر من جملة المعاني المحتملة على المعنى المقصود، بعد أن يكون قد اختاره من جملة معان بعد استيفاء البحث في كتب اللغة والتفسير. وتراه لا يلزم نفسه أن يظهر هذا البحث ولا دليل ذلك الترجيح، اختصارا، فيريح بهذا قارئ التفسير من عناء التقصي والتردد. فوجه الإضافة هو الاختصار المطلوب في تحديد المعنى المراد، وإعفاء القارئ من استعراض الشواهد والاختلافات الكثيرة وما تتضمنه عادة من التردد في بيان معنى المفردة القرآنية. دون أن يكون فيما قصده من الاختصار استغناءٌ عن العربية وعلومها.

ولنضرب مثالين لذلك يتضح بهما المقال، من ذلك ما فعله عند تعرضه لتفسير مفردة القرء من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: 228]: فهو يقول: "وَهِيَ جُمَعُ قُرْءٍ – بِضَمِّ الْقَافِ وَفَتْحِهَا – وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى حَيْضِ الْمَرْأَةِ وَعَلَى طُهْرِهَا مِنْهُ،."[15].

وهذا التحديد والاختيار هو نهاية بحث جميع المفسرين بعد طول البحث واستعراض الأقوال والاستشهاد بغامض الأشعار وواضحها... مما لا حاجة بكثير من القرّاء إليه. ثم شرع في التوسع لمن أراد الاستزادة في البيان والتفصيل. ثم نقل تعقيب شيخه على كلام المفسرين تقريرا له: "قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: وَالْخَطْبُ فِي الْخِلَافِ سَهْلٌ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذَا التَّرَبُّصِ الْعِلْمُ بِبَرَاءَةِ الرَّحِمِ مِنَ الزَّوْجِ السَّابِقِ وَهُوَ يَحْصُلُ بِثَلَاثِ حِيَضٍ كَمَا يَحْصُلُ بِثَلَاثَةِ أَطْهَارٍ، وَمِنَ النَّادِرِ أَنْ يَسْتَمِرَّ الْحَيْضُ إِلَى آخِرِ الْحَمْلِ، فَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ مُوَافِقٌ لِحِكْمَةِ الشَّرْعِ فِي الْمَسْأَلَةِ."[16].

ومن ذلك أيضا ما فعله في تفسير مفردة "حطة" من قوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ ﴾ [البقرة: 58]، فقد قال: "(حِطَّةٌ) وَهُوَ الدُّعَاءُ بِأَنْ تُحَطَّ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ كَقَوْلِكِ اللهُمَّ غُفْرًا."[17]. فهذا وإن كان واضحا بمجرد مطالعة المعجم العربي إلا أن التفصيل في ذلك هو دأب المفسرين فيه وفي غيره، مما لا تمسّ إليه الحاجة دائما. وقد يكون لبعض المفسرين مبرر لذلك، ولكن قارئ التفسير الحديث قد يستغني عن ذلك دون أن يقع له الخلل في فهم كلام الله من المفردة والآية. والإضافة إنما هي في التخلص من كثير من كلام المفسرين في معنى حطة بلا دليل يؤيد، بل بعضها لا معنى له أصلا.

3.2.إضافة تقرير المعاني الإجمالية:

ما سبق إنما تعلق بالمفردة القرآنية وكثيرا ما تكون محور الجملة العربية سواء استعملت في معناها الحقيق أم المجازي، وأما ههنا فنراه يُتبع ذلك البيانَ الجزئيَّ ببيان إجمالي للآيات بل المقطع القرآني من الآيات المحددة، وهو من الإضافات الهامة التي اعتمده المفسرون المعاصرون بداية من تفسير الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا رحمهم الله، ومن جاء بعدهم، كالمراغي وغيره...

ونضرب لذلك مثالا توضيحيا كما فعل عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ ﴾ [المائدة: 48].

ذلك أنه بعد أن حدّد مدلول المفردات، واستدل على المعاني التفصيلية أردف قائلا كما هي عادته إجمال القول في معاني مقطع الآيات التي تتبعها بالتحليل تفصيلا فقال: "وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ دِينَ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَاحِدٌ فِي أُصُولِهِ وَمَقَاصِدِهِ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللهِ وَتَنْزِيهُهُ وَإِثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ، وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،

وَالِاسْتِعْدَادُ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَمَّا الشَّرَائِعُ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ، وَشَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا لَيْسَ شَرْعًا لَنَا، وَمُوَافَقَتُهُ لِبَعْضِ الشَّرَائِعِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ كَمُوَافَقَتِهِ لِبَعْضِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ فِي كَوْنِهَا لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِشَرْعِهَا لَنَا، كَمَا لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَانِعًا، فَإِنَّمَا كُنَّا مُخَاطَبِينَ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ بِنُزُولِهَا عَلَيْنَا، لَا بِكَوْنِهَا شُرِعَتْ لِمَنْ قَبْلَنَا، وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ مُخَالَفَةَ الْيَهُودِ بَعْدَ نُزُولِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْهِ فِي الْمَدِينَةِ، حَتَّى فِي عَمَلِ الْبِرِّ الدَّاخِلِ فِي عُمُومِ شَرِيعَتِنَا وَشَرِيعَتِهِمْ؛ كَصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ..."[18]. والإضافة إنما هي في التزام السيد رشيد رضا بيانَ المعنى الإجمالي للمقطع القرآني في مواضع كثيرة.

4.2.إضافة توظيف اللمسة البيانية:

وأختمُ الحديثَ عن هذه الإضافة بملاحظة توظيف حقائق البلاغة العربية الواردة في النصّ الكريم دون أن ينصّ الشيخُ رشيد رضا على مفردات البلاغة الموظفة في الجملة والمقطع القرآني على طريقة بقية المفسرين من استعراض اصطلاحات البلاغية خصوصا عند المتأخرين مع ما فيها من التعقيد، كلُّ ذلك اكتفاءً منه بنتائج البحث البلاغي في الآية، وتجنيب غير المتخصص تكلف استيعاب موضوعات البلاغة المستعملة عند المتأخرين. هذا وجه الإضافة.

وقد أشار في مقدمة كتاب أسرار البلاغة إلى ما آلت إليه البلاغة العربية في كتب ودروس المتأخرين. وعمل على توجيه النظم الشريف بما هو أنسب ببلاغة القرآن كما فعل في قوله تعالى(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)[الإسراء: 97]."ففي كل هذا التنبيه على لازم توظيف المعنى المجازي في الآيات عند من يقول به وهو كثرة المفسرين، وما يفيده من تأكيد المعنى وترسيخه، وجعله أوقع في النفوس باستعمال مفردات: العمى، والصمم، والخرس. وهي مفردات حسية في سياق مجازي خاص. فليس من لازم العمى والصمم الحسي كلّ هذا الضلال فقد يكون ذلك في المؤمنين في الدنيا وتصحبه الهداية التامة.

ولا يفوتنا أن نختم الكلام حول هذا العنصر دون أن نسجل ما قد قاله السيد رشيد رضا عن البلاغة القرآنية في كتابه الوحي المحمدي، وهو معنى أعاده في مواضع كثيرة من تفسيره، بل وفي مجلة المنار بعبارات مختلفة تؤدي نفس الغرض، فقد تحدث عن " أنواع أخرى من الإلقاء الخطابي في الترغيب والترهيب، والتعجب والتعجيب، والتكريه والتحبيب، والزجر والتأنيب، واستفهام الإنكار والتقرير، والتهكم والتوبيخ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر، ولا رجز ولا سجع، فبهذا الأسلوب البديع وبلاغة التعبير الرفيع، كان القرآن كما ورد في معنى وصفه أنه لا تبلى جدته، ولا تخلقه كثرة الترديد. وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل."[19].

03.الإضافات التشريعية:

تناول الشيخ رشيد رضا الفقه والتشريع فقد تلقى في تكوينه العلوم الشرعية والفقه على وفق المذهب السائد في موطنه الأول بأرض الشام والذي كان يغلب أن يكون فقه الإمام الشافعي محمد بن إدريس(204هـ)، وقد وجد نفسه بعد الحلول بمصر، وصحبة شيخه محمد عبده، وأفكار السيد جمال الدين وجد نفسه، أقول وجد نفسه ناقدا وبشدة للتقليد، والتعصب للمذهب، فكان يكتب في ذلك في مجلة المنار ويعالجه بشدة، وكتب أيضا عن ذلك في تفسير المنار، وكثيرا ما كانت توجه للمنار الأسئلة الفقهية، فكان يتولى الإجابة عنها وهي مقادير من الفتاوى من الكثرة والجدة، والأهمية بمكان، فكان بذلك مفتيا كشيخه الأستاذ الإمام وكان له مواقف حرة يمليها الدليل، ولو كانت مخالفة لمذاهب السائدة.

كان هذا يجرُّ عليه الانتقاد الشديد والنكير المستمر إذ كان الزمان زمان حمل رصيد القرون من التقليد، ومع ذلك فقد خاض السيد رشيد رضا في كل مجالات الفقه الحيوية المتصلة بالحياة، وبما كان تموج به بلاد العرب والإسلام من قضايا التشريع والأفكار...وجعل من كلّ ذلك مجالا بل مجالات واسعة للإصلاح، ونشر الوعي، وبيان محاسن التشريع الإسلامي ومزاياه على غيره بما لم يسبق إليه طوال ما يقارب الأربعين سنة.

1.3.إضافة توضيح فقه العبادات ومقاصده:

جرت عادة الفقهاء أن يذكروا الفقه مسائلَ مجردة من الدلائل، وعادة المفسرين أن يذكروا الأحكام مقرونة بدليلها، وكانت إضافة السيد رشيد رضا في تفسيره لآيات الأحكام وتناوله لقضايا الفقه الإسلامي مقرونة بدلائلها ومقاصدها، مع بيان حكمة التشريع، وما هو مناسب من التعليل، مع بيان الفائدة التشريعية من تحقيق نظام، أو دفع مفاسد... مع التمثيل لكل ذلك من واقع حياة المسلمين، ليعرف الناس الفقه تشريعا حيا يساير تطورات أحوالهم، ولتكون الكلمة الأخيرة للدليل والمقصد، لا للتقليد وفروع المذهب.

فعند قوله تعالى: "(وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) من سورة البقرة قدم كلاما جديدا نسبيا حول تفسيرها فهو يقول: "الصَّلَاةُ: إِظْهَارُ الْحَاجَةِ وَافْتِقَارٌ إِلَى الْمَعْبُودِ بِالْقَوْلِ أَوِ الْعَمَلِ أَوْ كِلَيْهِمَا، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمُ (الصَّلَاةُ مَعْنَاهَا الدُّعَاءُ)، لِأَنَّ إِظْهَارَ الْحَاجَةِ إِلَى الْعَظِيمِ الْكَرِيمِ وَلَوْ بِالْفِعْلِ فَقَطِ الْتِمَاسٌ لِلْحَاجَةِ وَاسْتِدْرَارٌ لِلنِّعْمَةِ، أَوْ طَلَبٌ لِدَفْعِ النِّقْمَةِ، أَرَأَيْتُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقِفُونَ بَيْنَ أَيْدِي الْمُلُوكِ نَاكِسِي رُءُوسِهِمْ حَانِنِي ظُهُورِهِمْ، وَتَارَةً يَقَعُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يُقَبِّلُونَهَا، أَلَيْسَ الْبَاعِثَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ إِمَّا خَوْفٌ مِنْ عُقُوبَةٍ يَطْلُبُونَ بِهِ دَفْعَهَا، وَإِمَّا حَذَرٌ عَلَى نِعْمَةٍ يَتَوَقَّوْنَ سَلْبَهَا وَرَفْعَهَا، فَيَلْتَمِسُونَ بَقَاءَهَا وَيَرْجُونَ زِيَادَتَهَا وَنَمَاءَهَا؟."[20].

وكذلك تكلّم المفسرون عن آيات الصوم، وما دون من أقوال الفقهاء حوله، ولكن السيد رشيد كان له منحى آخر، فيه زيادة على ما كان معهودا من مأثور التفسير، وإن لم يكن كلّ ذلك سيئا إلا أنه يوجد دائما ما هو أحسن منه. وذلك عن طريق صبغ الفقه بروحه التربوية بعد استكماله دلائله ومقاصده، ثم بيان حاجة العباد إلى ذلك ووجه العائدة من التكليف عاجلا وآجلا. فهو يقول: "(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ): "هَذَا تَعْلِيلٌ لِكِتَابَةِ الصِّيَامِ بِبَيَانِ فَائِدَتِهِ الْكُبْرَى وَحِكْمَتِهِ الْعُلْيَا، وَهُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ نَفْسَ الصَّائِمِ لِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى بِتَرْكِ شَهَوَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُبَاحَةِ الْمَيْسُورَةِ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ وَاحْتِسَابًا لِلْأَجْرِ عِنْدَهُ، فَتَتَرَبَّى بِذَلِكَ إِرَادَتُهُ عَلَى مَلَكَةِ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالصَّبْرِ عَنْهَا فَيَكُونُ اجْتِنَابُهَا أَيْسَرَ عَلَيْهِ، وَتَقْوَى عَلَى النُّهُوضِ بِالطَّاعَاتِ وَالْمَصَالِحِ وَالِاصْطِبَارِ عَلَيْهَا فَيَكُونُ الثَّبَاتُ عَلَيْهَا أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: (الصِّيَامُ نِصْفُ الصَّبْرِ) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ."[21].

وفي نظرته التشريعية للحج أيضا وقد اكتفينا بالاطلاع على موضع محدد لأجل التمثيل، مع علمنا أن ذلك هو دأب رشيد رضا في تفسيره كله، إذ كان له منهج واضح أعده لحركته الإصلاحية. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: 198]. قد قال ما نصه: "وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْكَسْبَ مُبَاحٌ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ، وَأَنَّهُ مَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ وَمُلَاحَظَةِ أَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى يَكُونُ فِيهِ نَوْعَ عِبَادَةٍ، وَأَنَّ التَّفَرُّغَ لِلْمَنَاسِكِ فِي أَيَّامِ أَدَائِهَا أَفْضَلُ، وَالتَّنَزُّهَ عَنْ جَمِيعِ حُظُوظِ الدُّنْيَا فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ الطَّاهِرَةِ أَكْمَلُ."[22]. نجده يعرض المباح من سعي الدنيا مقرونا بالحج، ثم يوجه إلى ما هو الأكمل في ذلك تحصيلا لمقاصد الحج كاملة، وهو مراد العباد من قصدهم في ذلك، وأما الدنيا فمتيسرة في كل زمان ومكان.

2.3.إضافة توضيح فقه المعاملات ومقاصده:

ونردف الحديث عن نظراته في التشريع الإسلامي، وهو يفسر أصله الأول، ويستدل له بأصله الثاني وهو السنة النبوية، بما يلي من الإشارة إذ نراه يقلّب وجوه النظر في الأحكام الفقهية المنصوص عليها في القرآن، مع بيان وجه الدلالة، وبيان المقصد من تشريع المعاملة وما تعود عليه وعلى الجماعة من النفع، وما في خلافها من الضرر. فقد ذكر عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَطِلِ ﴾: "الْخِطَابُ لِعَامَّةِ الْمُكَلَّفِينَ، وَالْمُرَادُ لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ، وَاخْتَارَ لَفْظَ (أَمْوَالَكُمْ) وَهُوَ يَصْدُقُ بِأَكْلِ الْإِنْسَانِ مَالَ نَفْسِهِ لِلْإِشْعَارِ بِوَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَتَكَافُلِهَا، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ احْتِرَامَ مَالِ غَيْرِكَ وَحِفْظَهُ هُوَ عَيْنُ الِاحْتِرَامِ وَالْحِفْظِ لِمَالِكِ؛ لِأَنَّ اسْتِحْلَالَ التَّعَدِّي وَأَخْذِ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ يُعَرِّضُ كُلَّ مَالٍ لِلضَّيَاعِ وَالذَّهَابِ، فَفِي هَذِهِ الْإِضَافَةِ الْبَلِيغَةِ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ، وَبَيَانٌ لِحِكْمَةِ الْحُكْمِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ جِنَايَةٌ عَلَى نَفْسِ الْآكِلِ، مِنْ حَيْثُ هُوَ جِنَايَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ الَّتِي هُوَ أَحَدُ أَعْضَائِهَا؛ لَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَهُ سَهْمٌ مِنْ كُلِّ جِنَايَةٍ تَقَعُ عَلَيْهَا، فَهُوَ بِاسْتِحْلَالِهِ مَالَ غَيْرِهِ يُجَرِّئُ غَيْرَهُ عَلَى اسْتِحْلَالِ أَكْلِ مَالِهِ عِنْدَ الِاسْتِطَاعَةِ، فَمَا أَبْلَغَ هَذَا الْإِيجَازَ! وَمَا أَجْدَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِوَصْفِ الْإِعْجَازِ!"[23]. وهي إضافة لم تكن معهودة إلى عهد قريب، وقد جرى عليها من جاء بعده من تلاميذ مدرسته كالشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ أبي زهرة، والشيخ شلتوت...

3.3.إضافة التوجيه في الموروث الفقهي:

ما تقدم كان عن خصوص الجواب عن المسائل الفقهية والقضايا التشريعية من أدلتها مع تبين مقاصدها، وقد كانت تلك إضافة يلاحظها عمليا من طالع فتاوى صاحب المنار أو درس طريقته في استنباط الأحكام من القرآن، وأما ههنا فهو نقد سديد لما انتهى إليه الفقه الإسلامي من تدوين الأحكام بدون دليلها ولا معرفة مقصدها... وقد انتهى ذلك التدوين الرسمي منذ قرون بدون إضافات كثيرة تذكر، وأما دعا إليه السيد رشيد فهو الكفّ عن ذلك بعنوان التقليد، والعودة بالفقه إلى حاله الأول زمن الصحابة والأئمة من بعدهم، من ربط الحكم بدليله الصحيح، ومقصده الواضح، وتحدد ذلك كلّ ما دعت إليه الضرورة، وجعل الحجة في النص والمصادر لا قول المقلد مهما كانت درجته. ففي هذا النص ما يفيد بعضا من ذلك "وَلَمَّا تَصَدَّى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ لِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَاسْتِخْرَاجِ الْفُرُوعِ مِنْ أُصُولِهَا وَمِنْهُمُ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ، كَانُوا يَذْكُرُونَ الْحُكْمَ بِدَلِيلِهِ عَلَى هَذَا النَّمَطِ، فَهُمْ مُتَّفِقُونَ مَعَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ أَحَدٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَعْرِفْ دَلِيلَهُ وَيَقْتَنِعْ بِهِ. ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُقَلِّدِينَ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى مَنْ جَعَلَ قَوْلَ الْمُفْتِي لِلْعَامِّيِّ بِمَنْزِلَةِ الدَّلِيلِ مَعَ قَوْلِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ بَلَغَهُ الْحَدِيثُ فَعَمِلَ بِهِ كَانَ ذَلِكَ أَوْلَى. ثُمَّ خَلَفَ خَلْفٌ أَعْرَقُ مِنْهُمْ فِي التَّقْلِيدِ فَمَنَعُوا كُلَّ النَّاسِ أَخْذَ أَيِّ حُكْمٍ مِنَ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ، وَعَدُّوا مَنْ يُحَاوِلُ فَهْمَهُمَا وَالْعَمَلَ بِهِمَا زَائِغًا. وَهَذَا غَايَةُ الْخِذْلَانِ وَعَدَاوَةِ الدِّينِ، وَقَدْ تَبِعَهُمُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَكَانُوا لَهُمْ أَنْدَادًا مِنْ دُونِ اللهِ."[24]. ولا يخفى أن هذه الإضافة النقدية الفاعلة في حياة الفقه الإسلامي جاءت في وقتها، وفي زمن شيوع التقليد وتكلس الأحكام، ونعت الشريعة بالجمود، وعجز العلماء عن مواكبة موجات التشريع العالمي، التي كانت وباستمرار تتعاطى وتغير ظروف المحيط الإنساني.

4.الإضافات العلمية:

1.4.إضافة التحقيق في المسائل العلمية والكونية:

ركز الشيخ رشيد رضا على السنن الاجتماعية وهو ما سماه بالعلم الاجتماعي، في حين لم يبلغ اهتمامه بالسنن الكونية درجة قسيمتها، ومع ذلك فلم يخلُ تفسيره، ولا ينبغي له أن يخلوَ من ذلك تفسير فيما يخص انتظام ظواهر الكون، وما فيها من الترابط، وما أبدله الله في صنعها من حكمة "وهكذا أكثر رشيدُ رضا في تفسير المنار من نظرية السنن الإلهية في المجتمع... ولكنّه لم يفصل الشيخ كيفية تفسير القرآن بالسنن الكونية."[25].

والسبب في ذلك واضح وهو كون التفسير والمعالجة لجميع الموضوعات تأخذ شكلها ومقصدها الهدائي، ولا تركز على الجانب العلمي إلا بالمقادير التي تحقق ذلك المقصد. إضافة إلى أن المقادير التي فسرها لم تتح له كمًّا كبيرا من نصوص تلك السنن بخلاف من أكمل التفسير كالأستاذ طنطاوي جوهري مثلا. وهذا الموقف يعكس التحفظ الذي اشتهرتْ به مدرسة الأستاذ من تفسير القرآن بالحقائق العلمية وما في ذلك من الحرج على فرض تبدل القناعات العلمية، وتوقع تغير نتائج البحث العلمي كما هو ملاحظ في تفسير الشيخ شلتوت، وهو أحد تلاميذ هذه المدرسة المخلصين.

2.4.إضافة التحقيق في السنن الاجتماعية:

كثيرة هي المواطن التي لم يترك الشيخ رشيد رضا فيها التنبيه على واجب فهم السنن الإلهية التي أجراها الله تعالى بين عباده وفي عموم خلقه، والقرآن حافل بذكرها، وتفصيل معانيها، ونتائجها، والتحذير من تركها. وأنها من حقائق الدين، لكونها من حقائق الحياة. ففي معرض الامتنان على نوح وجماعة بنعمة النجاة والإنجاء، يذكر بالسبب الواجب اتخاذه مهما كان بسيطا ما دام فيه استيفاء نوح عليه السلام وجماعته للممكن من أسباب النجاة، ثم يعْقُب ذلك اللطفُ الإلهي يتممُ الناقص البشريَّ:

وهو من اللطف المتمّم للأسباب لا المعارض لها. فمن العباد من يدفعه المولى إلى سبب من الرزق تيسيرا له، ومنهم من يصرفه عنه رفقا به ولطفا. وهو أعلم بحال عباده.

وهو من الخطاب الداخلي كما يعبر عنه لكونه بينه وبين أوليائه المجتهدين في السلوك إليه، كما في بقية الحديث.

وقد يأخذ التعرّض لموضوع السنن الاجتماعية في القرآن في كلام السيد رشيد رضا شكلَ التصحيح المباشر لمفاهيم خاطئة تنسب للدين وهو منها براء، ويتم الترويج لها حتى تكاد تحلّ محلّ حقائق الدين الأصيلة.

3.4.إضافة التحقيق في موروث التفسير العلمي:

لم ينل كثير من التفسير الذي سبق منهج الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، أقول لم ينل حظّه من المراجعة، سواء من جهة التأكد من مصادر ذلك التفسير، ككون الروايات ضعيفة، أو موضوعة، وكذا النقل عن كعب الأحبار في جماعة، أو من خلال التدقيق اللغوي... وأكثر من هذا لم يساير التفسير الموروث على كثرته تفاصيل الحياة الإسلامية بشكل مباشر رغم التطورات الكثيرة والخطيرة في المشرق والمغرب، وبقي النص القرآني بمعزل عن ذلك كله اللهم إلا في الموالد والمناسبات أو بعض الاستشهاد به في الخطب القديمة المتجددة.

وهذا نفسُه ما دعا السيد رشيد تبعا لأستاذه إلى مراجعة موروث التفسير، لإعادة صياغة جديدة لمعايير الاعتماد والتجاوز لما حمله ذلك الموروث الهائل. وأنت ترى شكل الإضافة النقدية للتفاسير القديمة السابقة من خلال عرض السيد رشيد رضا للتفسير داعيا ضمنيا إلى المقارنة بغيره.

5.الإضافات الإصلاحية:

لم يأت السيد رشيد رضا مصرَ مدرّسا ولا طالبا لوظيفة رسمية، فقد كان متعاليا عن ذلك فقد كانت مهمته إذن إصلاحية، كان يرى واقعا يحتاج إلى التغيير، وقضايا تحتاج إلى إعادة النظر فيها، وذهنيات يجب أن تتبدل، وكان يرى لكل ذلك جنودا وأعوانا، لا يشعرون بالحاجة إلى كل ذلك، وربما شعروا بذلك ولكن يئسوا من إمكانية معالجته، حتى أصبحوا مدافعين عنه، وأحيانا خصوما للمصلحين. ولأجل ذلك رأى أن أنجع وسيلة ليست التدريس بالأزهر ولا بالجامعة المصرية ولا تولي المناصب في الدولة، بل الصحافة هي الحلّ الناجع،

لأنها الأداة المتاحة للجميع، وتسمح بخطاب كلّ الشرائح كلما كان المصلح واعيا بظروف زمانه، ومستعدا للقيام بمهامه. أنشأ رشيد رضا مجلة المنار بهذه القناعة وقد بين من خلالها أغراضها الإصلاحية.

إنّ هذه السنن مخلوقة للجميع ومتاح تعلمها وتسخيرها للجميع، وأكثرهم تطويعا لها، هو أكثرهم فهما واتباعا لقضاياها، وأقلّهم مخالفة لناموسها... ولا يكفي أن نكون مسلمين لتداهننا هذه الحياة على حساب هذه السنن الخالدة، والمطردة. وكلّ أسباب ضعف المسلمين وهوانهم – بنظر رشيد رضا – هو جهلهم واستهتارهم في فهم سنن الله، والسعي على وفق ترتيبها.

ونلاحظ في تفسيره توسع بشكل كبير في عرضها والاستدلال لها، وبيان آثارها، وعرض نماذج مصائر المتبعين لها، والمخالفين لناموسها. وهو عرض امتدّ على مساحة التفسير، ثم تجاوزه إلى المجلة فإلى مؤلفات السيد رشيد، ثم إلى أفكار تلاميذ شيخه محمد عبده. بشكل لم يسبق إليه.

ونحن نعرض لهذه الإضافات بإيجاز في عناصر محدودة للتمثيل فقط لا للتوسع، فلذلك مجاله الخاص من الكتب المطولة.

1.5.إضافة الإصلاح في المجال الديني:

لا يخفى على الناظر ولو المستعجل أن الأحوال الدينية في المجتمعات العربية والإسلامية لم تكن دائما بالشكل الذي يرضي، ولا الحال الحسنة، ولكن الاختلاف كان كبيرا حول ضرورة الحاجة إلى هذا الإصلاح، ومن يجب أن يقوم به العلماء أم الحكام؟ وكيف يكون شكل ذلك الإصلاح.

وقد ظهرت في حياة المسلمين سلبيات كبيرة وكثيرة تتعلق مرّة بسوء فهم الدين، وأخرى بسوء تطبيقه، ويوجد من كان يسهر على هذه السلبيات ظنّا منه أنها لا تمس جوهر الدين أو أنها من الغفلة العارضة، أو أنه آخر الزمان حيث يعزّ الإصلاح والمصلحون...ثم حدث طارئ على الحياة الإسلامية بحلول الأجنبي –المخالف في الدين– أوطانها المسلمة، وكان هو الحاكمَ والمشرع والمعلّم والإعلامي ورجل الدين من أتباع النصرانية خصوصا.

وقد صحب ذلك موجاتٌ من الإلحاد أفرزتها اللادينية والمذاهب الشيوعية. كان لابد إذا من قيام من يواجه هذه الموجات التنصيرية خصوصا بالهند وما جاورها، وأفكار الإلحاد في الصحف والجامعات...إضافة إلى شيوع البدع والخرافات المخدّرة للشعوب، والتي ألصقت بالدين من قرون وهو بريء منها.

كما حمل رحمه الله عبر ثلاثة عقود على ما شاب التدين الصحيحَ من البدع والخرافات، وأفكار الرجال في مقابل النصوص الشرعية، وشيوع التصوف الخرافي، والسلبية في التعاطي مع المواقف والمصائر، والتهاون في الأسباب والإحالة المتخلفة على الغيب في جميع أمور الحياة زيادة على الجهل السائد والمتزايد باسم الدين وأهله... فكان أن فتح السيد رشيد جبهات إصلاح عديدة أعطت ثمارها، ووفّقت نسبيا فيما حاولت ولم ينتقل إلى رحمة الله إلا وقد ترك مدرسة وتلاميذ ينهجون النهج ذاته، فكانوا من ثمار ذلك الإصلاح وتلك الإضافات الإصلاحية.

2.5.إضافة الإصلاح في المجال السياسي:

مع أنّ السيد رشيد رضا لم يتولّ منصبا في وزارة، ولا كون حزبا ولا انتمى إليه إلا أنه قد كانت له ميول واهتمامات سياسية، كما كان له إعجابٌ ببعض الزعماء السياسيين الذين ناضلوا ضد الاحتلال كما فعل مصطفى كمال[26]، وفعل عُرابي باشا مؤيدا بالشيخ محمد عبده. وإذ كان محمد عبده مصريا ومع ذلك عوقب على نضاله السياسي، فإن السيد رشيد رضا كان متحفظا لكونه شاميا، ومع ذلك لم يمنعه التحفظ من الوقوف أمام السياسات الزائفة، كما دعم مواقف سياسية رآها هادفة.

وأكثر من الذي ذكرناه للقارئ أنّ السيد رشيد رضا كتب – من خلال تفسيره – موجها الساسةَ والحكام والعلماء والمفكرين؛ بل كل الأمة عن شكل الحكومة الإسلامية كيف يراها، ويقرر أصولها، أمام ما كان يراه من الاستبداد والحكم الفردي، والعجز السياسي بل التيه السياسي، وأمام ما كان يُدّعَى من كون الإسلام ليس فيه شكلٌ للحكومة ولا طريقة لتولي السلطة، تشبيها له بالنصرانية واليهودية...

وفي ذلك يقول: "فَالْأَمْرُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى هَدَانَا إِلَى أَفْضَلِ وَأَكْمَلِ الْأُصُولِ وَالْقَوَاعِدِ لِنَبْنِيَ عَلَيْهَا حُكُومَتَنَا وَنُقِيمَ بِهَا دَوْلَتَنَا، وَوَكَلَ هَذَا الْبِنَاءَ إِلَيْنَا فَأَعْطَانَا بِذَلِكَ الْحُرِّيَّةَ التَّامَّةَ وَالِاسْتِقْلَالَ الْكَامِلَ فِي أُمُورِنَا الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَصَالِحِنَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَ أَمْرَنَا شُورَى بَيْنَنَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَكَانَةِ الَّذِينَ نَثِقُ بِهِمْ، وَيُقَرِّرُونَ لَنَا فِي كُلِّ زَمَانٍ مَا تَقُومُ بِهِ مَصْلَحَتُنَا وَتَسْعَدُ أُمَّتُنَا، لَا يَتَقَيَّدُونَ فِي ذَلِكَ بِقَيْدٍ إِلَّا هِدَايَةَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ، وَلَيْسَ فِيهِمَا قُيُودٌ تَمْنَعُ سَيْرَ الْمَدَنِيَّةِ أَوْ تُرْهِقُ الْمُسْلِمِينَ عُسْرًا فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، بَلْ أَسَاسُهُمَا الْيُسْرُ، وَرَفْعُ الْحَرَجِ وَالْعُسْرِ، وَحَظْرُ الضَّارِّ، وَإِبَاحَةُ النَّافِعِ."[27].

3.5.إضافة الإصلاح في المجال الاجتماعي والاقتصادي:

وأختم هذه الجولة في إضافات السيد رشيد رضا في مجال تفسير القرآن وما خطه تبعا لشيخه محمد عبده من مناهج التفسير، ومعالجة قضايا الحقيقية، وطرق فهم الحياة الإسلامية في كل مكان وزمان وفق أحكامه وتشريعاته الهدائية كما كان يعبر يومها. ففي التصرف في المال قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء:04]، "فَإِذَا جَرَى لَنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ هَذِهِ الْوَصَايَا، وَالْحِكَمِ حَتَّى صِرْنَا أَشَدَّ الْأُمَمِ إِسْرَافًا، وَتَبْذِيرًا، وَإِضَاعَةً لِلْأَمْوَالِ، وَجَهْلًا بِطُرُقِ الِاقْتِصَادِ فِيهَا، وَتَثْمِيرِهَا، وَإِقَامَةِ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ بِهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نَظِيرٌ فِي أَزْمِنَةِ التَّارِيخِ مِنْ حَيْثُ تَوَقُّفُ قِيَامِ مَصَالِحِ الْأُمَمِ، وَمَرَافِقِهَا، وَعَظَمَةِ شَأْنِهَا عَلَى الْمَالِ حَتَّى إِنَّ الْأُمَمَ الْجَاهِلَةَ بِطُرُقِ الِاقْتِصَادِ، الَّتِي لَيْسَ فِي أَيْدِيهَا مَالٌ كَثِيرٌ قَدْ صَارَتْ مُسْتَذَلَّةً، وَمُسْتَعْبَدَةً لِلْأُمَمِ الْغَنِيَّةِ بِالْبَرَاعَةِ فِي الْكَسْبِ، وَالْإِحْسَانِ فِي الِاقْتِصَادِ؟."[28].

وهو لونٌ من التفسير بديع يتم فيه تفسير القرآن، ومعالجة قضاياه ذات الأولوية الاجتماعية على حساب فيض مباحث اللغة والمنطق... كما كانَ يجري إلى عهد قريب من زمنه رحمه الله. وانظر كيف أدار شراع سفينة التفسير لصالح حاجة قارئ التفسير بل حاجة المؤمنين في كلّ زمان ومكان. وهو المنهج الذي اتبع لاحقا لم نرَ من خالفه سوى الشيخ الطاهر بن عاشور (1974م)، فقد كاد أن يعود بالتفسير إلى مربعه الأول.

إنّ الإضافات ليس من الضروري أن تكون جديدة من كلّ وجه، بل يكفي أن يكون فيها تخلص مما أتخم به التفسير من الهوامش المعرفية، أو تكون الإضافة بالتوسع في موضوعات جرت عادة كثير من المفسرين اختصارها أو إغفالها بالمرة، أو تصحيح منهج التفسير مما ينافي طبيعته العلمية، وقواعده المعرفية من كلّ ما يفسح المجال للآراء الضعيفة، والأفكار السخيفة على حساب التفسير المطلوب. وإن نظرة واحدة على ما في كتاب التفسير بالمأثور للإمام السيوطي تفيد ذلك وغيره أتم فائدة، فقد صار كثيرٌ مما فيه حجة للنصارى والملحدين... مع أنّ قصد السيوطي رحمه الله إنما هو حفظ مقولات التفسير من الضياع لا تحقيقها وتمحيصها.

فكان ذلك ومن هذه الزاوية إضافات علمية كثيرة ومتنوعة شملت العقائد والعبادات والمعاملات من سياسية واجتماعية واقتصادية، وأخرى تربوية...وهو ما استوعبته جميع أجيال المفسرين التالية لعصر السيد رشيد وأعماله التفسيرية.

الخاتمة:

بعد هذا العرض لأهم الإضافات في تفسير القرآن كما بدت للباحث من خلال مطالعة تفسير القرآن الحكيم، والمسمى " تفسير المنار "، نشير إلى النتائج التالية:

– مدى استيفاء ثقافة المفسر لدى رشيد رضا، لإلمامه بالثقافة الشرعية، واللغوية، ومطالعة التاريخ، وسنن الإجتماع...

– يتضمن القرآن طائفة كبيرة من القضايا الاجتماعية خصوصا، والتي كثيرا ما كانت تهمل التفاسيرُ القديمة على كثرتها المعالجةَ الناجعة لها إلى زمان صاحب تفسير المنار.

– اقتصد رشيد رضا في مباحث اللغة والنحو والفروع الفقهية والكلامية، وأطنب في المسائل الاجتماعية، وتصحيح العقائد والعبادات، والدلالة على الرجوع إلى القرآن مفسّرا بالسنة الصحيحة مصدرا للفكر الإسلامي.

– صحح الرواية في التفسير، وحمل على الإسرائيليات، وبين مقاصد الاجتهاد في التفسير في بيان السنن الإلهية، وأسباب القوة، وتشخيص واقع المسلمين، مع بيان سبيل النهوض بهم بوحي من القرآن وتفسيره...وذلك لا عهد لكثير من السابقين به في تفاسيرهم تحديدا.

– كانت إضافات محمد رشيد رضا التفسيرية خصوصا قاعدةَ انطلاق، وخطًّا واضحا لكثير من التفاسير اللاحقة، فاستجاب التفسير بذلك إلى حاجات القارئ العادي لا فقط اهتمامات المفسر المتخصص.

.

قائمة المصادر والمراجع:

- تامر محمد، محمود متولي، منهج الشيخ رشيد رضا في العقيدة، ط.1، السعودية، (2004م).
- رشيد رضا، المنار والأزهر، ط.1، مصر، مطبعة المنار، (1353ه).
- رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط.5، لبنان، مؤسسة عز الدين، (1406ه).
- رشيد رضا، كتاب الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، ط.4، مصر، ب ت.
- رشيد رضا، مجلة المنار، مصر، (1353ه).
- زياد خليل، محمد الدغامين. مقال منهج التعامل مع القرآن ب ت.
- شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا، ط.1، دمشق، ابن زيدون، (1356ه).
- العدوي، أحمد إبراهيم. رشيد رضا الإمام المجاهد، ط.1، المؤسسة المصرية العامة، ب ت.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط.1، مطبعة الترقي بمصر، (1320ه).
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط.1، مصر، مطبعة المنار، (1366ه).
- محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مصر، دار الفرقان، ب ت.
- محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، ط.1، لبنان، مطبعة المنار، (1353ه).
- هاجر محمد أحمد، منهج تفسير المنار، دكتوراه جامعة الخرطوم. السودان، (2004م).
- عبد الحق الإدريسي، مقال مفهوم التشريع الاجتهادي، مجلة الدراسات الإسلامية، م 09 ع 02.
- يونس أفندي، مقال السنن في المنار والجواهر، مجلة أسياسية، م20 ع 02.

الهوامش:

[1] رشيد رضا، المنار والأزهر. ط.1، مصر، مطبعة المنار، (1353هـ)، ص: 139.

[2] هاجر، محمد أحمد، منهج تفسير المنار. دكتوراه جامعة الخرطوم. السودان، (2004م)، ص:38.

[3] رشيد رضا، المنار والأزهر. ص: ص:191.

[4]– هاجر، محمد أحمد، منهج تفسير المنار. ص:39.

[5] زياد خليل، محمد الدغامين، مقال منهج التعامل مع القرآن ب ت. ، ص: 50.

[6] تامر محمد، محمود متولي، منهج الشيخ رشيد رضا في العقيدة، ط.1، السعودية، (2004م). ص: 93.

[7] رشيد رضا، المنار والأزهر. ص: 10.

[8] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة. ط.1، مصر، مطبعة المنار، (1366هـ)، ص:07.

[9] رشيد رضا، كتابة الخلافة، مصر، الزهراء للإعلام العربي، ط.4، ب ت، ص: 09.

[10] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (تفسير القرآن الحكيم)، ط.1، لبنان، مطبعة المنار، (1353هـ). ج07/1.

[11] محمد رشيد رضا، تفسير المنار ج07/1.

[12] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج07/1.

[13] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج10/1.

[14] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. 87/1.

[15] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج293/2.

[16] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج294/2.

[17] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج268/1.

[18] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج 6/ 345.

[19] رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط.5، لبنان، مؤسسة عز الدين، (1406هـ)، ص: 137.

[20] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج128/1.

[21] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج145/2/1.

[22] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج230/2.

[23] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج2/ 157

[24] محمد رشيد رضا، تفسير المنار. 82/2.

[25] يونس الأفندي، مقال: السنن في المنار والجواهر، مجلة أسياسية، م20 ع 02، ص:08.

[26] رشيد رضا، تفسير المنار. ج5/ 153.

[27] رشيد رضا، تفسير المنار. ج5/ 153.

[28] رشيد رضا، تفسير المنار. ج4/ 313.